

الخمامة

عبد الودود سيف

افتحوا أبواب «طروادة»
 كي أعيدَ ترتيب أبراجها
 ومقاصيرها
 وأسماءها
 وأخلع «هيلينا» من عرشها العاج
 وألحقها في وصائف «أزاد» التبابعيات.



لقد ملأتني «هيلينا» بسهوب الأناضول
 وعطر «أثينا»
 و«صدف» «طشقند»
 واجترتني إلى هوة عتيقة من حبي
 وها أنا أخلع جديلتها الإغريقية من قلبي
 وبسمة النيروز في عينيها

وأدخل مخفوراً بتاج بطيريك «صقلي» مهادن
إلى عرش «أزاد»
وألحق ذمتي في عنق «الأبناء».



«أزاد».. هذه القُبلة المحلّقة في الهواء
والطعنة الأثيرة،
والرمش الصيني المنساب حتى الأرض
والقائم على خدمته سبعة من حراس «كسرى»
المعممين بالنار
وسبعة من سدنة معبد «بوذا» المعمرين.

وهي النفق المائي المحفور ما بين قرطبة
وصحراء المغول
والحدائق المعلقة في أسوار قلبي.

«أزاد».. الأرض الحرام في رغبتني
تهبط الآن فجأة.
ألمح حدائق قلبي تتهدل فجأة
وثمة معبداً يسرج أنواره
وبوابة من الماء على شكل برزخ تنفياً في أعضائي
وأراني التتمتُ على شكل فقاعة صغيرة محدّبة.

تفتح عينيها
فأتصيب عرقاً
وتتخلع السهوب العتيقة من مفاصلي
وتتداح كل العطور المقدسة والصدف المتراكم في شراييني
وأضمحل
أضمحل
أعود إلى طبيعتي:

فلاحاً سبئياً يختزل في جسمه أدوات الحرث
 -المتعددة- بأداة واحدة.. هي عدة المحراث
 فلاكن -أنا الفلاح السبئي المنطق برمح الشهوة في بدني-
 دميةً لهوها في لحظات السأم الملكي.
 ولتطبق كل الأجرام السماوية على شفتي... وأشهرُ راية البلاهة السوداء.



أيها الماء الزلال
 يا حبات الحنطة التي كنتُ أذوق حلاوتها فتدير رأسي
 ويا خمر الأسلاف، كفي عن الدوران!
 اخلعي عليّ من رتابة الزمن الممدود في خطوات الحبيبة
 وشاحاً يطوّح بكل الأصداف البلهاء في قشرتي.

وأنت يا صوتي فلتخفض دفعةً
 ولتحني أعرافها كلُّ الجياد الشامخة في عنقي
 ولأبدأ من آخر الخطوات
 وأتسلق أسوار هذه السماء الإلهية الشاهقة.



إنها التواريخ -الواحدة- المكرورة في سيرتي.. بعد أن نهضتُ
 واستلّت في طياتها عاطفتها وتراتبها المنطقي المهندم
 وهي فألي حين أقدم الأضاحي على معبد القمر
 وبكارة الحرث
 وأغنية الحصاد.

وأنا فلاح.. و«قيل»
 يعصف اسمها في مسمعي فتملأني بأذان الصلاة.



اطلقتي قبرتي في الفضاء المهوم في عينيك
 سأشبهك في جدائكِ قرنفلة أرض الميعاد
 وأطلعُ من حدائقِ جفنيكِ
 سنابلَ تغنيكِ عن حقول الجنتين وكرمة بابل
 واغسليني بماء الطهارة في دهشتك
 أهَبِك - في طرفة عين - تفاح «البلقان»
 وقمح بلاد «الفلمنك».



أيُّها الصرح الممرد بأعقاب «الجنابي» الإلهية المحكمة
 وأقواس العقيق المرصع بسهوب الشرود المقدس في شوارد ظني
 تشابكتُ في هجسكِ
 فلأفتح لقوافل الحجاج - إذن - طريقاً من بين أصابعك
 واسبِّح بأسمائها في الغدو والآصال
 أصابعك:

هذه الكواكبُ العشرةُ التي أحاطتُ بما وراء قلبي
 وناشتُ ثيابي في سجداي قبالة محرابكِ
 ونجرتُ كل الطيوف المحلقة في طريقي إليك
 فهلاً رفعتِ رمشكِ قليلاً وأحطتِ بما في داخل قلبي!

سأنذر لمطلع كوكب زحل
 ما تبقى من عريي
 وهذا الخواء المكوّم في رأسي
 وأخلع كل أعتاب فؤادي
 وأفرشها سجاجيد زهول تحت قدميك
 وأنت تطايرين رذاذ غبار موكبك الأرجواني تحت نافذتي!



أنا المدلّة بالخطيئة
 والمرابط - منذ بدء الخليقة - في أحزان «يعقوب»

وفي الخوف المتطاير بأخدار النساء.. عند اقتحامها عنوةً
وأنا الأرضُ المروعة بالشبهات.. منذ ولادتي
والهدهد السبئي المنكوب بسوسة عصا الملك سليمان
وطائر العنقاء المسافر في الأرض.
أنا حجارة سد مأرب.
ونوارس شطوط «سقطرى» وأرض كنعان.

وأنت..

خيول النار المدوية في قوسي الحجري
وقرن الثور -الحزين- الذي تقوم عليه أركان الأرض
والدخان المتطاير من حرائق غابات مدار الجدي
وخط الاستواء.

أنت الريح التي أتصاعد في معراجها
وأنسج من بؤرها الأعاصير والعواصف والشهوات.
أنت الحجر «النواسي» المغني.. إذا ثمل
والبهلوان الذي يكسر أضلاعه خارج دائرة المخاض.

فلنعقد كفيينا

وندخل في لحن الجناز المهيب
ونسير في موكب استسقاء إلى جبل الرب.. في بلاد الأحقاف
فنصلي هناك صلاة حضورنا الواحد
فعلنا.. لا نتيه ثانيةً.

نهار من الشك يتمنطق في هواجسي
وكوكبة من عذارى «الترك» و«الأرمن»
يفغنين في ساحتي...
وأنا المطحون في أصواتهن.. إلى حبة الخال في رأس عنقي
أخالسهن النظرات
وحين يشفع لي قلبي، وتُحني إحدى العذارى نظرتها إلى الأرض،
ألتمع كعنق الغراب
وأطبق الأرض بفتة.. ثم آتي إليك.



كم قطعْتُ في أسفاري إليك من وهاد وآكام،
وتفشعتُ في كل الغيوم والهبوات التي أحاطت بعنقي..
بدءاً من ذي نواس ومن يليه من الأقبال، وحتى عبد الودود سيف..
وها أنتِ للمرة الـ... لست أدري تغشيني في أحلامي!



مدورة أنتِ وغنوجة
وأفراس الجوف وسائد لولبية في ردفك.
فاقشعي عن عيني أطمار البلاهة التي كومتها فوق جسدي الرث
وارسميني نقشاً على صحن عنقك.. أو بوابة دارك، لا فرق
وأعيدي إليّ التمتع أوثاني.
إنك ستقلعين من أضلاعي كل الأحراش الاستوائية
والأرض المملحة الكاسدة
وستعيدين -لو فعلت- ما تهدم من معابد روما الغريقة
وتلتئم -ثانية- فجوة الأخدود الفاصل بين تهامة
وبلاد السودان
وسترفعين على كوكب الأرض راية قارة سابعة.



يا حريري الموشى بأشجار المرّ والزعفران
ويا شجرة الحناء المخلوقة باسمي
إنني أدخل مخفوراً بأخر ما تبقى من «مخاليف» أحلامي
في رحاب مملكتك
ثم أحرُّ..
وأقرأ فألي في عينيك
وأتناول الكأس..
وأجرعها للمرة الـ...
حلم المهدل في خطوي.